الدكتور عبد السلام المسدّي

"التفكير اللساني في الحضارة العربية"

تونس ، الدار العربية للكتاب ، 1979

بقلم: فوزية العلوي

ان علم اللغة من اهم العلوم التي حظيت على مر العصور باهتمام المفكرين ، وأكبر شاهد على ذلك التراث اللغوي الغزير الذي بين أيدينا ، لكن الحديث عن اللغة إختلف باختلاف المناهج والاهتمامات. فمن المفكرين من خاض في البحث عن أصلها ونشأتها، فنتساءل عن مصدر هذا الكلام الذي يتداوله الناس ويتحاورون به : اتراه هبة من لدن اله عظيم ام تراه جاء نتيجة تواطؤ واصطلاح ؟ مثلما تم الخوض في دراسة اللغة باعتبار انها ميزت الانسان عن الحيوان وسمت به الى اعلى مراتب المخلوقات . كما بحثوا في مدى تعبير اللغة عن دقائق الوجدان الى غير ذلك من المواضيع . هكذا نرى أن اللغة كانت في نفس الوقت مادة البحث ووسيلته ومن ثم كانت صعوبة البحث فيها وعسر الحديث عنها .

على ان الطرق لهذه القضية اختلف من عصر الى آخر ففي حين كان البحث يجول في متاهات غيبية كالبحث في اصل اللغة مثلا ، صار الاتجاه اكثر علمانية فصار الاهتمام متجها الى ما يسمى بالدراسة الآنية او الصوتية للغة . ولنا أن نتساءل عن مكان العرب القدامى من كل هذا . هل بحثوا في اللغة مجردة بقطع النظر عن الاصل والنشأة ؟ ومعنى هذا هل تجاوزوا لسانهم ، وبحثوا في اللغة كميزة للجنس البشري ؟

لقد بحث العرب كغيرهم في اللغة بما انها اقرب شيء للانسان فهي الجسر الذي يصله بغيره . وهي اداة التعبير عن كل حاجياته ورغباته . فاللغة كما يقول الدكتور عبد العزيز الحبابسي : « هي منا اكثر مما لنا » .

ولكن الشائع هو ان التراث العربي لم يترك لنا في هذا المجال الا دراسات محورها اللسان العربي من نحو وصرف وبلاغة وعروض ... او نصوص تمجد اللسان العربي باعتباره لغة اهل الجنان كما يذكر ابن منظور صاحب (لسان العرب) في مقدمته :

« فان الله سبحانه وتعالى قد كرم الانسان وفضله بالنطق عن الحيوان وشرف هذا اللسان العربي بالبيان على كل لسان وكفى شرفا انه به نزل القرآن وانه لغة اهل الجنان » .

او كما يذهب التوحيدي في (الامتاع والمؤانسة) الى اعتبار انه سمع لغات كثيرة كلغة العجم والروم والهند والترك فلم يجد لهذه اللغات شيئا من نصوع العربية .

لكن الواقع يثبت خلاف ذلك . فالتراث العربي

بمختلف انواعه واشكاله يزخر باشارات بل احيانا بجمل واضحة متناسقة تنظر الى اللغة باعتبارها ميزة للانسان بقطع النظر عن انتسابه وموقعه الجغرافي .

فالمتقصي لآثار العرب يجد حديثا ضافيا عن الفرق بين صوت الحيوان والانسان . كما تعترضه تفسيرات دقيقة فيما يخص الفرق بين الحديث والعبارة واللفظ والقول والرمز والدلالة . كما يجد البحث في صلة اللغة بالفكر ... الى غير ذلك من المواضيع التي تشغل بال اللسانيين المعاصرين .

فتمجيد العرب للسانهم واعتزازهم ببيانه وعمقه وشموله وتقديسهم لنصهم الذي ذكر لهم بوضوح ان الله هو الذي علم آدم الاسماء كلها لم يعقهم عن اعمال العقل والخوض في مسائل مجردة تخص اللغة ككل لا اللسان العربي وحده . وتجدر الاشارة الى ان اعتبار اللسان العربي اسمى لسان لم يكن موقف كل المفكرين قديما . اذ اننا نجد من تفطن الى ان اللسان العربي لا يفضل اي لسان آخر باعتباره يقوم بوظيفة لا تختلف عن وظائف الالسنة الاخرى . وهذا يعد ثورة لا مثيل لها في ذلك العصر الذي يمجد فيه العرب لغتهم وكيف لا يمجدونها وهي لغة القرآن. فقال ابن حزم في كتابه (الاحكام في اصول الاحكام) : « وقد توهم قوم في لغتهم انها افضل اللغات وهذا لا معنى له لان اوجه الفضل معروفة .. وقد غلط جالينوس فقال أن لغة اليونان افضل اللغات لان سائر اللغات انما هي تشبه نباح الكلاب او نقيق الضفادع وهذا جهل شديد لان كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق » .

فنلاحظ ان ابن حزم وغيره كثير قد تحرر من قداسة اللغة بل اعتبرها وسيلة تخاطب كغيرها . فاللغة مختلفة باختلاف الازمنة والامكنة باعتبارها اصطلاحية . ومن هنا يمكن ان نقول ان العرب بحثوا خارج اللسان العربي وان كانت انطلاقاتهم منه .

وتطالعنا اليوم اول اطروحة دكتوراه تونسية تمنحها الجامعة التونسية نالها صاحبها الدكتور عبد السلام المسدي بملاحظة مشرف جدا .

وهي بعنوان التفكير اللساني في الحضارة العربية . وتصدر عن الدار العربية للكتاب 1979 .

وقد اعتبرت لجنة المناقشة هذه الاطروحة مغامرة فكرية ، ومنعرجا في مسار البحوث اللغوية الراهنة في الوطن العربي . وتتمثل هذه المغامرة في خوض الدكتور المسدي غمار التراث العربي الاسلامي بمختلف انواعه يستقرئه ويتقصى فيه البعد اللغوي ويستنتج معادلات لسانية هي من الاهمية بمكان . ولعل ابرز الاستقراءات اللسانية واطرفها على حد قول الدكتور عبد السلام المسدي « انما توجد في غير التراث اللغوي فعلا من ذلك ما ضمنه علماء الكلام في مؤلفاتهم وخاصة عندما تطرقوا الى قضية الاعجاز القرآني وقضية صفة الكلام ضمن صفات الله في علم الكلام . كما نجد لعلماء اصول الفقه استطرادات لسانية هي على غاية من الدقة منشؤها ضبطهم لطرق استنطاق النص اللغوي واستخراج الاحكام الشرعية منه . وفي المستوى الثالث نجد مادة التراث الفلسفي وخاصة عند المناطقة . ومعلوم ان كل ابواب علم المنطق تتطرق بكيفية او باخرى الى قضايا لغوية . فكان فلاسفة العرب بحكم اصالتهم اللغوية وانتمائهم الحضاري يمزجون بين التقدير الفلسفي الخالص كما خلده اليونان والتقدير العربي اللساني الذي يأتي بالطرافة الكاملة مما لم يهتد اليه لا ارسطو ولا من جاء بعد الحضارة العربية من اللاتينيين وليس هذا قدحا في اليونان ولا في الحضارة الغربية لان خصب الفكر العربي قد تولد من اقتضاءات حضارية محركها هو التفكير الاسلامي بمختلف قضاياه العقائدية وغير العقائدية » .

وقصدنا من الاشارة الى المضامين التي اعتمدها الدكتور المسدي تبين أن الاطروحة انما هي تعامل فعلي مع التراث وليست نظرية مسبقة سلطت على التراث تسليطا .

فالمؤلف ذو ثقافة لسانية واسعة خولته قراءة التراث بمنظار لساني حديث ، فتوخى الاستنطاق والتحليل دون التسرع الى الاستنتاجات الاعتباطية او المسلطة . اذ انه يعدنا على كل فكرة بنص من التراث على غاية من الدقة والوضوح مما لا يترك مجالا للشك او التخمين .

هذا ولقد كان تفكير المؤلف في المنطق تسليط اضواء علم اللسان الحديث على التراث العربي فكانت النية انجاز عمل يجمع بين مقولتي الاصالة والحداثة.

فنقطة الانطلاق من الناحية العلمية المنهجية « قد كانت بمثابة الفضول العلمي البريء الذي تستوجبه تقاليد الاطروحات وخلال استنطاقنا للتراث العربي اكتشفنا أن وراء الفكر اللغوي العربي جملة من المقومات المبدئية تخرج عن مجرد الانشغال في ضبط اللغة العربية الى بسط نظرية حول الظاهرة اللغوية بصفة عامة من حيث هي معطى كوني انساني » .

وفي هذا المستوى لاحظ المؤلف أن اللسانيات المعاصرة في تاريخها للفكر البشري كانت تهمل — سواء عن سوء نية أو عدمه — بصفة فظيعة حظ الحضارة العربية من بلورة الفكر اللغوي عامة . فكان ان تساءل عن الدواعي التي دعت المؤرخين الى تنزيل هذه الفترة والتي تسبب انفصاما في تسلسل حلقات الحضارة الانسانية .

فعمل الدكتور المسدي يرمي الى جملة في الغايات :

اولها : الخروج من مجرد الحديث عن التراث العربي وقيمته الى فك رموزه والتعامل النقدي معه .

ثانيها : تجاوز الاشارات العابرة لحقائق علم اللسان في التراث العربي بغية بسط نظرية شمولية متكاملة .

ثالثها : سد الثغرة الاعتباطية في تسلسل الفكر الحضاري الانساني .

رابعها : بسط المقومات الاولى لعطاء فعلي خصيب يقدمه الفكر العربي الى الفكر الانساني .

وتشتمل هذه الاطروحة على متن البحث وعدد من الملاحق كالمصادر والمراجع وفهرس الاعلام والمصطلحات والفهرس العام .

وينقسم متن الاطروحة الى مقدمة وثماني عشرة مسألة قسمت على ثلاثة فصول .

فالمقدمة مدخل الى حوافز البحث وفيها يتعرض المؤلف الى عدة قضايا هامة منها : سعي العلوم الانسانية الى الوصول الى الموضوعية بموجب تسلط التيار العلماني على الانسان الحديث . وكيف ادركت العلوم اللسانية هذه الدرجة رغم الفترة الزمنية القصيرة التي نشأت فيها . وتناول كذلك موضوع الحداثة والتراث : وتبيان منزلة استلهام العرب لتراثهم التي هي بمثابة مولد التاصيل الفردي الذي بانعدامه يبقى العرب في سجن الاخذ دون المشاركة الفعالة .

وتعرض المؤلف الى النظرية اللغوية عند العرب والعوامل التي ساعدت على نشأتها :

والفصل الاول بعنوان الانسان واللغة وفيه :

المسالة الاولى : اختصاص الانسان بالظاهرة اللغوية .
المسألة الثانية : ما قبل اللغة
المسألة الثالثة : نظرية التوقيف الالهي .
المسألة الرابعة : التشريع الوضعي
المسألة الخامسة : المحاكاة الطبيعية
المسالة السادسة : نظرية النشوء والتناسل.

وتناول هذا الفصل التفكير الذي كان سائدا عند بعض المفكرين العرب في علاقة الانسان باللغة .

فالمتفق عليه أن ميزة الانسان عن الحيوان هي النطق ولا يخلو حد الانسان سواء اكان ذلك عن الفلاسفة أو المناطقة أو اللغويين من أبرز صفة النطق عند الانسان . فهو الحيوان الناطق وهو الحي الناطق الى غير ذلك ...

لكن الاختلاف كان فيما يخص اصل اللغة فمنهم من يرى أنها هبة من الله باعتبار أن النص القرآني ذكر أن الله هو الذي علم آدم الاسماء . ومنهم من يرى ان اللغة هي من اصطلاح والا لما تعددت الالسن عبر الامكنة والازمنة : فذهب البعض الى ان اللغة فرضها الحكام على الرعية ليسهل التخاطب ، ومنهم من ذهب الى ان رجال الفكر هم الذين كونوا اللغة وفرضوها على الناس ، الى غير ذلك من الآراء التي يحللها الدكتور المسدي تحليلا ضافيا مستشهدا في ذلك بنصوص مختلفة من التراث.

وفي خاتمة الفصل الاول اشارات هامة تفيد ان علاقة الانسان باللغة قد فرضت في تاريخ الفكر العربي اشكالية مزدوجة اذ كانت المشكلة مركز تجاذب اعتبارين مختلفين احدهما لساني وثانيهما مذهبي عقائدي .

الفصل الثاني : المواضعة .

المسالة الاولى : اعتباطية الحدث الالسني
المسالة الثانية : تحديد المواضعة
المسالة الثالثة : المواضعة والعقد
المسالة الرابعة : من الاعتباط والتلازم
المسالة الخامسة : توليد المواضعات
المسالة السادسة : اكتساب المواضعة

يبدأ هذا الفصل بتحديد كل من معنى « المواضعة » والاصطلاح والفرق بينهما رغم ما يبدو فيهما من تشابه فمفهوم الاصطلاح يستعمل في منظور زماني ، ذلك لانه يتطلب تصريحا او تضمينا حضور مفهوم التوقيف .

اما متصور المواضعة فانه قد استقل بنفسه في مناهج الطرق النظري عند اعلام التفكير العربي . ولا يسعنا التعبير ضده الا بنفيه « انعدام المواضعة »

وفي مستوى المصطلح يتجلى الفارق بين المنظور الزماني في مفهومي التوقيف والاصطلاح والمنظور الآني في مفهوم المواضعة .

ويدور هذا الفصل حول تفطن العرب الى مبدأ المواضعة في اللغة واعتباطية الحدث الالسني . اي انه لا علاقة منطقية تربط بين الدال والمدلول سوى ما اتفق عليه اصحاب المجموعة الالسنية الواحدة .

وتفطنهم الى ان اللغة ما هي الا نظام علامات من جملة انظمة اخرى مختلفة . وتبرز قيمتها في انها تعبر عن كل شيء بايسر السبل . كما انه ليس للغة فضل على اخرى باعتبار أن كل قوم تواضعوا على نظام خاص من العلامات .

ثم خلصنا أهم ما ذكر فيها تفطن العرب الى ان للانسان استعدادا فطريا للكلام لكن ذلك لا يكفي دون تعلم وممارسة . وهو ما يؤول الى اعتبار اللغة موجودا قائما في ذات الانسان ينقدح خالما تتوفر شرائط خروجه الى حيز الفعل .

الفصل الثالث : مقومات الكلام

المسالة الاولى : الكلام والمكان
المسالة الثانية : الكلام والزمان
المسالة الثالثة : الكلام وفاعله
المسالة الرابعة : الكلام والاضطرار
المسالة الخامسة : الكلام والشمول
المسالة السادسة : هوية الكلام

يتتبع المؤلف في هذا الفصل الفكر العربي في النظرية اللغوية من خلال صورة الحدث الالسني المنجز فعليا . فبعد ان سعى الى تبين نظرية العرب من زاويتين احداهما : تفاعل الانسان مع الظاهرة اللغوية باعتباره منشئا لها وناظرا في امرها ، والثانية نوعية الوجود الذي تتم به اللغة من حيث هي كيان في ذاته .

اما في هذا الفصل فالمؤلف يرمي الى تحسس مواطن النظرية اللغوية بالاعتماد على الحدث المنجز فعلا ومحاولة لضبط خصائص اللغة انطلاقا من تجسمها في حدث الكلام .

لذا نجد الحديث في هذا الفصل عن الصوت وخصائصه الفزيائية وامتياز صوت الانسان عن تصويت الحيوان ، وعن وصف الحروف ومبدأ الاقتصاد في الكلام ووظائف اللغة الى غير ذلك .

ويختم الدكتور المسدي مؤلفه ببيان مزايا الالسنية المعاصرة . اذ يرجع اليها الفضل في مده بالمتصورات الفعالة والمنهجيات الاختبارية . ومعنى هذا انها هي التي زودته بالآلات والاضواء التي استطاع بفضلها الكشف عن اغوار التراث العربي الزاخر . وهي التي كما يذكر الدكتور المسدي : وفرت سبل التمازج بين حقول المعرفة . وهي التي أوصلته الى مرتبة التاليف الشمولي . لكن هذا العمل القيم لن يبقى مدينا للالسنية المعاصرة لانه سيمدها بزاد جديد ويسهم في خلق آفاق للبحث عديدة . فليست العملية مجرد اخذ فحسب بل هي اخذ وتمازج وعطاء خصب .